

## تحية

ابن البسطة خاض الدبلوماسية وأوصله الأدب إلى العالمية  
رحيل صلاح ستيتية... شاعر الضفتين

قبل اسابيع قليلة اغمض الشاعر والكاتب والديبلوماسي اللبناني عينية على سيرة غنية متشعبة اخذته من اقصى الشرق الى اقصى الغرب، وكرسته احد ابرز الشعراء الفرنكوفونيين. في مساره وشخصيته التي جمعت الثنائيات، عكس صلاح ستيتية صورة لبنان الذي كان مصدر غنى بتناقضاته كما صرح ذات مرة



الشاعر والديبلوماسي الراحل صلاح ستيتية.

انه شاعر الضفتين، او شاعر الثنائيات في مساره الابداعي كما في مسيرته الشخصية. اجمع الكل على ان ابن حي البسطة التحنا البيروتي، كان "عروبيا وفرنكوفونيا، لبنانيا وفرنسية، مسيحيا ومسلما وعلمانيا"، ورجلا سياسيا وديبلوماسيا، وشاعرا وقاصا وماذا ايضا؟ كأننا به صورة مصغرة عن لبنان الذي وصفه مرة بأنه بلد التناقضات التي كانت مصدر غنى منحت هذا الوطن خصوصية تميزه عن محيطه، الى ان جاءت اسرائيل وبدأت هذه البقعة الصغيرة تنفجر بتناقضاتها ومكوناتها. كيف الدخول الى سيرة بهذا الغنى والتركيب والتشابك؟

صلاح ستيتية (1929 - 2020) الذي رحل الشهر الماضي في باريس، عاش حيوات كثيرة، ضغطها كلها في حياة واحدة غنية وغزيرة ودقيقة حتى اللحظات الاخيرة. ولد ستيتية في كنف والد شاعر، علامة في اللغة العربية، ووالدة مثقفة، وهذا كان امرا نادرا في تلك الحقبة. كانت بيروت يومها تعيش حقيقتها السعيدة والواعدة المحملة بالامال ووعود الحداثة الاتية. في احدى المقابلات التي اجريت معه قبل سنوات، قال بأنه ترعرع في "لبنان الذي لم يكن قد خرج من القرن التاسع عشر. وكانت بيروت صغيرة ذات طابع متوسطي قديم ونبيل وكانت هناك مساحات خضراء اكثر بكثير من اليوم، وكانت هناك اسواق قديمة تعود الى القرن السابع عشر". وايضا، كانت بيروت العاصمة الكوسموبوليتية التي تعلو فيها صلوات الاذان واجراس الكنائس معا، مفتوحة على البحر وعلى العالم والغريب، جامعة على ضفاف بحرهما الشرق والغرب معا. كانت لؤلؤة في محيطها ومنازة للفكر والتعدد.

تفتح وعي صلاح ستيتية  
وسط مناخ ثقافي  
 واجتماعي تعددي ومتنوع

في هذا المناخ التعددي المتنوع، تفتح وعي صلاح ستيتية. يورد في مذكراته "حفلة جنون" ان والده محمود ستيتية ارسله ليتعلم الفرنسية عند الابهاء اليسوعيين، بعدما كان هو نفسه قد تعلم التركية، املا في الحصول على وظيفة في الادارة العثمانية. الا ان مجيء الانتداب الفرنسي سينسف احلام الاب بالارتقاء الاجتماعي.

خاصة في قلبه على جدران منزله، كما سيوقع كبار الفنانين والتشكيليين اغلفة كتبه ودواوينه لاحقا. سيصبح صديقا للشاعر الفرنسي بول ايلوار، والفيلسوف والقاص سيوران، والكاتب والشاعر الفرنسي بيار جان جوف، والشاعر والمؤرخ الفرنسي ايف بونفوا وغيرهم كثيرين. لدى عودته الى بيروت، سيتولى تأسيس ملحق ثقافي هو "لوريان ليتيرير" (الملحق الادبي لجريدة "لوريان لوجور")، حيث عرف القراء الى ابرز شعراء الفرنسية في تلك الفترة، الى جانب الشعراء اللبنانيين على رأسهم خليل حاوي وادونيس. من موقعه الثقافي والابداعي، سيساهم في حداثة بيروت ومختبرها الفكري والثقافي المنفتح على العالم، وسيستقبل مبدعين كبار على رأسهم الشاعر التركي الشهير ناظم حكمت، والايطالي اونغاريتي. لكن رياح السياسة ستأخذه بعيدا من العالم الابداعي والشعري.

بدءا من عام 1961، سيتنقل في مهمات سياسية عدة، ويمارس العمل الدبلوماسي طويلا في باريس، اذ سيكون مندوب لبنان الدائم لدى الاونيسكو، ثم سفيرا في المغرب، وامينا عاما لوزارة الخارجية ثم سفيرا في لاهاي... وسيتأخر صدوره ديوانه الشعري الاول "الماء البارد المحفوظ" حتى عام 1972. لكن العمل الاول سيفرض نفسه في المشهد الشعري الفرنسي، وسيرسخ ستيتية شاعرا عربيا يكتب الفرنسية كما وصفه مرة ادونيس. يمكن القول انه في هذا الديوان، تنبأ بالحرب الاهلية اللبنانية. اذ يقول فيه: "من سينقذ هذا البلد من مجيء اصوات احذية العسكر الذين قد يأتون ليخطفوا الماء البارد المحفوظ!" كرت بعدذاك سبحة الاصدارات، وترجم ستيتية الى لغة الضاد (النائب السابق والاكاديمي الدكتور مروان فارس الذي ربطته به علاقة صداقة شخصية وشعرية ترجم الكثير من اعماله)، وسينال العديد من الجوائز المرموقة من بينها "جائزة الفرنكوفونية الكبرى" العام 1995، و"جائزة

## نقطة على السطر

## شعرُ لبنانيّ على عرش العالمية

حين سئل مرة الاديب الجزائري كاتب ياسين، صاحب رواية "نجمة" التي تعتبر احدي ايقونات المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي، كيف يمكن لمبدع مثله ان يكتب بلغة المستعمر، اجاب الرجل بلا تردد: "اللغة الفرنسية بالنسبة الي غنيمة حرب". وبعد اكثر من نصف قرن على هذا الكلام، ما زال النقاش محتدما: هل اللغة، واللغة وحدها، تحدد هوية الشاعر، وهوية الشعر؟ وطبعاً يمكن ان نعمم السؤال على شتى صنوف الادب والابداع والكتابة.

يخطئ من يظن ان هذه الاشكالية تجاوزها الزمن. فسؤال الهوية ما زال حارقا في ثقافتنا، ان على مستوى لبنان، او العالم العربي. في مجتمعاتنا قيد التكون الدائم، مخاضاتها المختلفة منذ الاستقلال، ما زلنا ندور حول السؤال الوجودي نفسه: من نحن بالنسبة الى العالم؟ بل من نحن بالنسبة الى انفسنا؟

اذا كان سؤال الهوية مركب، وشائك، اذا كانت الهوية، بشكل عام، قيد التشكل والتطور والتحول باستمرار، فان الجوهر هو نفسه، ولا يمكن ان نتنكر لذاكرتنا او نعيد كتابة تاريخنا. اننا، على خصوصياتنا المختلفة، عرب بلا شك، ننتهي الى الهوية العربية، ولغتنا الام هي العربية. وذلك لا يمنع ابدانا نتقن لغات متعددة، ونعرف من معين الثقافات العالمية، ونعيد تملكها، وهذا حقنا كشركاء في الحضارة الانسانية الواحدة.

واذا تجاوزنا المعطى اللبناني والعربي، سنجد ان كتابا عالميين نعرفهم ونحبهم، هجروا لغتهم الام، وكتبوا باحدى لغات الامبراطورية المهيمنة. في. اس. نايبول المولود في ترينيداد بات كاتبا بريطانيا وكتب بالانكليزية. اوجين يونسكو الروماني الاصل، هو كاتب فرنسي تمام، في هذا البلد عاش وكتب واشتهر ومات. حتى كونديرا الذي هاجر من بلاده ايام مان اسمها تشيكوسلوفاكيا، تحول تدريجا الى اللغة الفرنسية، وبقي موزعا بين بلدين ولغتين، علما انه لم يتصالح مع بلده الاصيل الا في مرحلة متأخرة...

اما الكتاب العرب، من مغاربة ولبنانيين وفلسطينيين ومصريين وغيرهم، فكتبوا بلغة المستعمر وبقوا عربا. هنا تكمن ميزتنا واشكاليتنا. هنا تكمن خصوصيتنا في الانتماء المزدوج، الى الوطن والامة الاصلية من جهة، والى لغة الثقافة والكتابة والتعبير الموروثة عن المستعمر السابق من الجهة الاخرى.

لا ينبغي للنقاش ان ينحرف الى الشوفينية الضيقة، ولا الى الاختزالية. يستعمل المبدع الادوات التي يمتلك، والتي يجيد التعبير فيها. يمكننا ان نحصر على تمكين اجيالنا الجديدة من لغة الضاد، وجعلها تتجاوز مع الحاجات العصرية لشبابنا. اما الجيل الذي ينتمي اليه الشاعر الراحل صلاح ستيتية، فله قصة اخرى مع اللغة. وتحت وطأة الضرورة، كتب الشعر بلغة مولير، وتفوق، وبلغ العالمية. ماضيا على خطى جورج شحادة الذي يتعامل معه النقاد واهل الادب ودارسوه ومؤرخوه اليوم كأحد اكبر شعراء الفرنسية.

لكن صلاح ستيتية وجورج شحادة شاعران لبنانيان، باللغة الفرنسية. لبنانيان حتى ادق تفصيل، واعر منعطف، في اصغر قصيدة من شعرهما. ذلك ان الهوية يحملها الشاعر في كيانه، انها الضوء الداخلي الذي يشع على اللغة. الهوية تتجلى في اختيار المواضيع، وتركيب الصور، وتوظيف المفردات، وبناء التشابيه، وإيقاع الكلمات. انهما شاعران عالميان من بلادنا. والفرنسية لكل منهما، ان لم تكن "غنيمة حرب"، فلنسمها تركة حضارية في تصرف الاجيال.

## ما قاله عن طوائف الشرق

افل الاسلام العربي منذ القرن الخامس عشر، لم يخونوه على رغم العلاقات والامتيازات التي بدأت تربط بعضهم ببلدان مسيحية في اوربا كلها. لقد ظلوا هنا واستحالوا، بدءا من القرن التاسع عشر وبفعل انفتاحهم على غرب في اوج تطوره الحضاري، الخميرة التي يحتاجها العالم العربي كي يتجدد".

في مذكراته "حفلة جنون" الصادرة بالفرنسية، كتب صلاح ستيتية: "اكن للموانة، والارثوذكس، والاشوريين، والكلدانيين، والاقباط، والآخرين، الكثير من الحنان والاعجاب. فالاسلام، الذي حكمهم منذ القرن السابع، بشكله العربي اولا، ثم في ذروة مجده بشكله العثماني، لم يسحقهم ولم يستبعدهم. وحين

## صارت القدم الى الموت

من "الماء البارد محفوظ" في ترجمة وتقديم لمروان فارس، 1994:

والان هم في الابدع المغنون	معشوقا لدى الجميع والسيف الوثيق
علينا ان نعدو علينا ان نلمس ثوبهم	كان كوعه المذهل يصبح كونا
قبل ان ينام	وكان تحتي يقع الامتداد
كل صراخ خارجا يجري بركبتين عذبتين	لكنني كنت ارقب الساعة والابرة
غير هامة	حتى احطمه فاعيده متحطما
تطارد غير هامة	اه، ان ذلك اقل من الخبز كنت ابغي
خياشيم الحصان تغلق بحيرة	ان اكل من العدل. هو
الحشرة تخط جملة طويلة	قد قال: ذبابات. ومديدا كنت ادور
طويلة وتضج	هزيلا واسود على الحقل منصوبا للظلال
الموجة الهزيلة	لقد مضى الهواء مع الذباب
هي كلها في ثمار من رمل	برد يظل: البيضاء بنهدين
غير صراخ بقبعة يمضي الى الهضبة	تهبهما لاشكال الخيول بغرفة
ويقع	حيث تنام انوفها قوية قتلى
نعلق الها رطبا	ان الرخام قوي. الرب - قد خرج
بدروعه	انه يدور وحيدا فوق الحقول الغامقة
الى الاغصان	يدع هنا ممزقة
كنت ارقى اليه على المفصل الحي	ذراعه الهائلة
على حدوث حقل من الورود	ذراعا مقتلعة من اله. ما الفعل - او القول؟
وكان لي السيف لصمتي	ان الكلام يجرح بالكاهل دم الناس

الصدقة العربية الفرنسية" عن كتابه "حملة النار"، و"جائزة ماكس جاكوب" عن "تعاكس الشجرة والصمت"، فضلا عن عدد من الاوسمة التي نالها كسفير للبنان، مثل "جائزة سان سيمون الكبرى"، و"جائزة جان جاك روسو"...  
الشهر الماضي، اغلق صلاح ستيتية الفصل الاخير من سيرة غنية ومتشعبة، ورحلة اخذته من اقصى الشرق الى اقصى الغرب، من دون ان يبتعد عن لبنان الذي ظل هاجسه الاول. في احد حواراته الاعلامية يوم صدور مذكراته، قال: "لا اعرف ما الذي سيكون عليه مستقبل لبنان، فمستقبله مرتبط بكل ما يجري على ارض الشرق الاوسط. وما

س. م

## مروان فارس: القصيدة عند ستيتية ابتداء لا نهاية له

■ وصف صلاح ستيتية بأنه شاعر الضفتين، كيف تصف تجربته الشعرية والحياتية؟

□ تجربة صلاح ستيتية الشعرية، محاولة لوضع الابداع الشعري موضعا متميزا في الحياة الممتدة من البدايات حتى النهاية، خاصة وان الصورة الشعرية عنده تنطلق من الموقع الى اللاموقع. مما يعني ان شيئا ما سيكون قبل ان تبتدئ الاشياء، فلا تنتهي. الشعر الذي له بداية، اهميته ان لا نهاية له. كان صلاح متأثرا جدا بموج البحر لانه الموج الذي يحمل الحياة. فلذلك، انه يحكي في شعره عن اللاموت. هنا كانت تحط رحال الفكرة. انها هي قافلة من دورات المياه المتدفقة في سهل منبسط انبساط القصيدة. القصيدة عنده اذن ابتداء لا نهاية له. لذلك، فهي تستمر في المخيلة، قبل انطلاقتها الذي لا انتهاء له. من الشرق الى الغرب، في موقع ملتبس بين الوجود واللاوجود، كانت تحط عنده رحال القصيدة. لا تعرف الى اين تذهب في اللامكان. الشعر عند صلاح ستيتية آت من اللوان الى الوان الاخر قبل الموت والحياة. صلاح ستيتية شاعر الضفتين، شرق المتوسط وغربه. تملأه الثقافة العربية التي تنبعث من فكر الاسلام الذي كان الشاعر يعرفه عن كذب. كتاباته الشعرية كلها تعبير عن الحدأة الشعرية التي ترتقي الى عمق اللغة العربية، واهم ما في الامر ان اللغة انطلقت في بداياتها من الشعر الذي كان يحمل اللغة كما تحمل الام ولدها الرضيع.

■ خلال محاضرة القاها قبل سنوات عن الازمة السورية، اتهم اوروبا بشكل مباشر بأنها مسؤولة عما يحصل "ليس فقط من طريق مساندها الدائمة لاسرائيل، كذلك لعدم اكتراثها اليوم بالقضية الفلسطينية". الى اي حد في رأيك احتلت القضية الفلسطينية مركزا محوريا في فكر ومشاعل صلاح ستيتية؟

□ في كتابه "محمد" وفي اوج صعود التطرف الاسلامي، اظهر الرسول على حقيقته. قانوني فذ ومحارب استراتيجي ومعجب بالجمال كرس نفسه كي يظهر لمعاصريه بعدا جديدا عن الله في عالم متأزم رأى فيه الاسلام كدين توحيدي ثالث بعد المسيحية



النائب السابق والاكاديمي الدكتور مروان فارس.

واليهودية. كتابه "محمد" ليس فقط سيرة كلاسيكية، بل هو كتاب تأملي عميق حول مفهوم قوي ومميز عن الله والانسان والحرية حول الزمن والقيم. ولانه كذلك، وانطلاقا من شقيقته ومن اسلامه الانساني والشامل، هو كتب عن فلسطين، وكانت فلسطين قضيته المركزية، معتبرا ان طريق التحرير هي طريق المقاومة. من خلال هذا الموقع الايديولوجي، كانت لي معه محادثات شخصية لم تنقع لسببين: الاول لقاؤنا في الشعر، والثاني في الانتماء الى الارض. فشعره عربي وان كتب باللغة الفرنسية، وهو ينتمي الى ثقافة عالمية ضاربة في عمق التاريخ. كانت تجمعني به صداقة تتخطى المشاعر، لتمتد الى الاقتناع الفكري بالقضية الوطنية ومركزها فلسطين، وقد كتب عنها ما تستحقه.

■ توليت ترجمة العديد من دواوينه الى العربية مثل "اجزاء قصيدة"، و"الماء البارد محفوظ"، و"الجهة الاخرى للبالغ النقاء"، و"صيف الغمام العظيم"، كيف كانت ردة فعله على الترجمة؟  
□ اتذكر انه وانا انقل ما كتبه بالفرنسية الى العربية، قال لي: "استطيع الان ان اموت، فلقد اعدتني الى لغتي العربية التي احبها كثيرا".